الخصوصية الثقافية في رو اية الجنقو مسامير الأرض لعبد العزيز بركة ساكن

cultural specificity in the novel al-jingo, nails of the earth, by abdel aziz baraka sakin

يوسف بكاكرية[1،*] ، روفيا بوغنوط[2]

1 جامعة أم البواقي، (الجز ائر) youcef.bekakria@univ-oeb.dz

2 جامعة أم البواقي، (الجز ائر)rofia.boughanout@univ-oeb.dz

مخبر تعليمة اللغة العربية والنص الأدبي في النظام التعليمي الجز ائري. الو اقع والمأمول

تاريخ الإيداع: 2024/01/18 **تاريخ المراجعة**: 2024/06/18 **تاريخ النشر**: 2024/09/30

ملخص:

سنتتبع في هذا المقال الخصوصية الثقافية، لمجموعة اجتماعية تنتمي لقارة لها مميزاتها الإثنية والأنثروبولوجية وخاصة التاريخية والاجتماعية، وهي القارة الإفريقية، والتي أصبحت محل اهتمام الدراسات الإجتماعية والإنسانية في فترة ما ما بعد الكولونيالية. لما تتميز به من مظاهر سوسيو-ثقافية، لم يتم تناولها بطريقة موضوعية بعد.

وباعتبار الأدب الكاشف الأبرز لمثل هذه المميزات، فقد اعتمدنا على مقولات النقد الثقافي، لاستظهار الخصوصية الثقافية لمجتمع الجنقو (مجتمع إفريقي سوداني)عبر العمل الروائي الذي يقدمه لنا عبد العزيز بركة ساكن.

الجنقو هم العينة المصغرة التي يمكننا من خلالها تعميم بعض النظريات المتعلقة بالخصوصية الثقافية للمجموعات الاجتماعية الإفريقية، فما هي أهم مميزات الخصوصية الثقافية لمجتمع الجنقو- الإفريقي-؟

الكلمات المفتاحية: عبد العزيز بركة؛الجنقو مسامير الأرض؛ الرواية العربية الإفريقية؛ الخصوصية الثقافية.

.

Abstract:

In this article, we will trace the cultural specificity of a social group belonging to a continent that has its own ethnic, anthropological, and especially historical and social characteristics, African continent, which has become the focus of social and humanitarian studies in the post-colonial period.

Considering the literature that most prominently reveals such features, we have relied on the categories of cultural criticism, to demonstrate the cultural specificity of the Jango community (an African-Sudanese community) through the fictional work presented to us by Abdel Aziz Baraka Sakin. The Jingo are the small sample through which we can generalize some theories related to the cultural specificity of African social groups,So What are the most important features of the cultural specificity of the Jingo-African society?

Key words: *Abdul Aziz Baraka;Gingo Earth Nails; The Arab-African novel; Cultural specificity*

*المؤلف المراسل.

تقديم:

عرفت الرواية العربية الإفريقية نضجا فنيا معتبرا في القرن الواحد والعشرين؛إذ استطاعت تخطي بعض المواضيع المستهلكة التي تجاوزها الزمن والسياق التاريخي، ونخص بالذكر مواضيع الأنا – والآخر أم ما يطلق عليه الأدب ما بعد الكولونيالي والذي كانت غايته الأولى دحض النظريات الغربية التي تحط من قيمة الفرد الإفريقي أو الإنسان الأسود بتعبير أدق، ولقد نشأ هذا الأدب ممثلا في الجنس الأكثر استهلاكا(الرواية) ليعيد الاعتبار لقارة جُمِدَ فيها الفكر لقرون عديدة ، جراء الوجود الغربي وهيمنته، وتولى هذه المهمة أدباء أفارقة سنحت لهم الفرصة الدراسة في مدارس المعمرين، أو استطاعوا الهجرة لدول أخرى وهناك درسوا فانفتح فكرهم على آفاق أخرى، وأدركوا حقيقة أن هذا الغربي لم يأت لنشر الحضارة كما ادعى أو نشر دين جديد ؛بل كانت غايته الباطنية الاستيلاء على خيرات القارة وطمس الإرث الفكري الإفريقي. وهذا ما أفضى بأن جاءت أغلب الروايات ضد الاستعمار ومناهضة له سواء بلغته أو بلغات أخرى عالمية تضمن له الانتشار والوصول إلى أكبر عدد من القراء عبر العالم.

وبعد تجاوز هذه المرحلة رأى بعض من المثقفين الأفارقة أنه قد حان الوقت لتأسيس خطاب روائي بهوية إفريقية والابتعاد عن المناسباتية والظرفية التاريخية ، والحذو حذو الروائيين في أمريكا اللاتينية الذي استطاعوا الوصول للنضج الروائي الذي يسمح لهم بالقص والحكي انطلاقا من عمق قارة أمريكا اللاتينية وخصوصيتها ، كذلك كان هم كتاب القارة الإفريقية؛بل وصلت المحاولات بهم إلى التخلي عن اللغات الكولونيالية وتغييرها باللغات المحلية على غرار نغوغي واثينغو Wa Thingo Ngugi، ووجد آخرون في لغات كانت من قبل موجودة داخل القارة (وإن كانت في الأصل دخيلة هي الأخرى) ضالتهم التعبيرية، مثل العربية التي وجد كثير من الروائيين الأفارقة العرب . الترتيب مهم ها هنا. ، أن العربية قادرة مثلها مثل اللغات الأخرى على نقل التجربة الإنسانية الإفريقية للعالم، خصوصا أن فترة وجودها في قارة إفريقيا يمتد لقرون غابرة، وبناء على هذا يتشكل السؤال في دراستنا إلى أي مدى استطاع الكتاب الأفارقة العرب تمثل الخصوصية الثقافية الإفريقية وتصديرها إلى المتلقي عبر أنحاء العالم ؟.

أولا:من الثقافة إلى الخصوصية الثقافية:

1_ الثقافة في الدراسات ما بعد الكولونيالية:

تعدُّ الثقافة من الاصطلاحات والمفاهيم التي شغلت المثقفين عبر العالم وفي مختلف الحقب و العصور التاريخية؛ أي منذ أن بدأ عقل الإنسان يؤسس لخطاب فكري يلامس الجانب العقلاني للإنسان، ولهذا فإن الإحاطة بجميع المفاهيم اللغوية والاصطلاحية لمفهوم الثقافة يتطلب منا إفراد بحث خاص، حتى يتسنى لنا تتبع تطور المصطلح أنطولوجيا وهو من الأمور الشاقة والشائكة؛ لأن الثقافة مصطلح بيني ؛حيث لا يمكن نسبته لمجال معرفي واحد، ثم إن الثقافة مصطلح تصطبغ بصبغة الهالة التي تحيط به، تاريخيا وسياسيا وثقافية واقتصاديا ومعرفيا. فَعَدُ المفاهيم التي صيغت لمصطلح الثقافة من الصعوبة بمكان، لهذا نرى من الأفضل تناولها من جانب معرفي متخصص حتى لا تخلط الأمور على أي باحث، أو حصرها ضمن مجال تاريخي معين متعلق مباشرة بمادة البحث الأولى، كما هو الحال في بحثنا هذا والذي ستناول فيه الرواية الإفريقية العربية

المعاصرة، ونشير إلى أن المعاصرة المقصود بها هي الزمن الحالي غالبا ما يبدأ التأريخ لها من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى الزمن الحاضر، وما يهم هنا تقديم تصور المثقف لمفهوم الثقافة في هذه الحقبة تحديدا؛ لأنه سينعكس آليا على الإنتاج المعرفي العلمي أو الفني و الأدبي، انطلاقا من هذا التصور سنقارب أهم المفاهيم التي وردت للثقافة في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية .

ارتبط مفهوم الثقافة في هذه الحقبة الزمنية بمجال العلوم الاجتماعية والإنسانية أكثر من ارتباطه ببقية المجالات الأخرى، ذلك لأن مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية أصبح تخصصا رسميا وقارا في أروقة الجامعات والأكاديميات الغربية بالإضافة إلى قدرة العلوم الاجتماعية والإنسانية على استيعاب فروع معرفية لا تحصى مثل: التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والإثنولوجيا ... وكل المجالات المعرفية التي لا تعتمد بالأساس على مادة تجريبية ملموسة ولا تحكمها قوانين ثابتة، وهو ما ينطبق على الثقافة تحديدا.

عرفت هذه الفترة التاريخية بأنها كانت سياسية بامتياز، لهذا فإن مفهوم الثقافة كان وليد تجاذب سياسي و"كانت المجادلة الفرنسية الألمانية الممتدة من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين نموذجية في تمثيلها تصورين للثقافة، أولهما تخصيصي، وثانيهما كوني، وهما في أساس الطرقتين في تحديد مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية المعاصرة."[1]

اصطبغ إذن مفهوم الثقافة في القرن العشرين بصبغة الصراع السياسي المغلف بصراع ثقافي فكري وكانت الغاية ليس الهدف العلمي الأكاديمي بقدر ما كان الدافع إثبات تفوق قومية على أخرى، أو بالأحرى كانت محاولة إثبات تفوق للقومية الفرنسية على نظيرتها الألمانية وغيرها، وبهذا اتخذ مفهوم الثقافة شكله التخصصي؛ أي إنّ المفهوم هو بالأساس نتاج فرنسي وموجه للاستهلاك الفرنسي ولا يخدم إلا الغاية الفردية والجماعية الفرنسية، وفي " بداية القرن العشرين في فرنسا، الذي شهده استخدام كلمة ((ثقافة)) في معناها الجماعي؛ إذ كانت الأيديولوجيا القومية الفرنسية تحرص على التماس البائن حتى في مستوى التعابير، عن منافستها الألمانية، غير أن نزاع الكلمات استمر بعد انقضاء نزاع الأسلحة، كاشف عن تعارض إيديولوجي عميق ليس بالإمكان رده إلى مجرد دعاية حربية "[2] النقطة الثانية المهمة والأساسية في مفهوم الثقافة في القرن العشرين، بخلاف أنه ذو خلفية سياسية قومية(فرنسية-ألمانية تحديدا) هو الجانب الأيديولوجي للمصطلح، أي هو تعبير عن أيديولوجيا معينة وخصوصية، تبدأ من خصوصية صياغة المفهوم إلى خصوصية مضامينه، وصولا إلى خصوصية المنتج والمستهلك لمصطلح الثقافة.

اللافت في خصوصية المنتج لمصطلح الثقافة أنه تفرع من المجال العام الذي احتضنه إلى مجال أكثر دقة وأكثر عملية، وهو الإثنولوجيا؛ ومصطلح الإثنولوجيا في أبسط مفهوم لها هي(علم الأجناس البشرية)، وهو فرع من الأنثربولوجيا التي هي فرع بطبيعتها من العلوم الاجتماعية، والثقافة بالنسبة لهم من بين أوجه دراسة أي جنس بشري لأنها تحدد جزءا كبيرا من خصوصيته واهتماماته، فنحن " ندين إلى عالم الأثروبولوجيا البريطاني إدوارد بارنات تايلور(Edward Burnett Tylor) (1832-1917) بأول تعريف للمفهوم الإثنولوجي للثقافة:

إن ((ثقافة)) أو ((حضارة)) ، موضوعة في معناها الإثنولوجي الأكثر اتساعا، هي الكل المركب الذي يشمل المعرفة والفن والمعتقدات والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه

عضوا في المجتمع "[3] يتفاعل داخله، وهذا التفاعل يخلقه الشعور بالانتماء الفطري للإثنية التي ولد وتربي وتعلم فيها،إن شعوره بالانتماء لمجتمعه أو الجماعة التي ينتمي إليها، تجعله يمارس الإنتاج الثقافي، سواء الاعتيادي اليومي أو المؤسس واضعا الاعتبارات الإثنية في وعيه وحتى هناك بعض الاعتبارات في لا وعيه، تجعله يمارس العمل الثقافي سلوكا محاكيا، فالرقص مثلا في إفريقيا هو ظاهرة ثقافية بالنسبة لدارس العلوم الاجتماعية، ولكنه بالنسبة للإفريقي، قد يندرج ضمن عديد الغايات منها ما هو احتفالي ومنها ما هو حتى طقسي عقائدي... من هنا تكتسب الثقافة في مفهومها الخاص الطابع الإثنولوجي.

بالحديث عن هلامية مفهوم الثقافة نجد من بين الأنثروبولوجين الذي ركزوا على دحض المقولات القائلة بوحدة الثقافة، بوا Boas الذي يرى أنه ليس هنالك " إلا ضعيف أمل في اكتشاف قوانين كونية لاشتغال المجتمعات والثقافات. وأضعف من الأمل في اكتشاف قوانين عامة لتطور الثقافات، ولقد وجه نقدا جذريا إلى ما كان يسمى منهج ((التحقيب)) المتمثل في إعادة تركيب مختلف مراحل تطور الثقافات انطلاقا من أصول مزعومة "[4] بمعنى أن الثقافات تنشأ اعتباطيا وعفويا، عبر الممارسة الحياتية اليومية، وليس على المجتمعات سوى الوجود في فضاء زماني مكاني واحد وممارستها الحياة بصفة عادية، وبذلك تنشأ الأسس المكونة لثقافة تلك المجتمعات ، فالمجتمع يحتاج لحل مشكلاته ومنه تنشأ المعرفة، والمجتمع يحتاج للتعبير والترويح عن نفسه ومنه ينشأ الفن، و يحتاج المجتمع إلى تنظيم الحياة العامة وحياة الأفراد فتنشأ القوانين والعادات، وكما أن المجتمعات بحاجة دائما للجانب الروحاني الغيبي الذي يفسر الظواهر التي لا تقوى المادة على تفسيرها فنشأت الأديان والمعتقدات كما نشأت الأساطير في العصور الأولى والتي كانت غايتها الأساس سد فراغ الطبيعة، وللإجابة عن التساؤلات الميتافيزيقية. كل هذه الأمور التي وجدت بوجود المجتمع ساهمت في تشكل الثقافة دون أن تكون هناك غاية معلنة لذلك.

إن تركيزنا على الجانب الإثنولوجي للتوضيح ماهية الثقافة _ خدمة لمسار البحث- لا يعني الاستغناء عن المفاهيم الأخرى المصاغة لمصطلح الثقافة، التي تندرج ضمن سياقات مختلفة، ابستيمولجية و ذاتية، وعليه نجد من بين عديد التعريفات المهمة للثقافة مفهوم قيسلر الذي ينص أن " كل النشاطات المجتمعية بمعناها الواسع،كاللغة والزواج سستام (ترجمة حرفية لكلمةsystem بمعنى نظام أو منظومة)الملكية،فضلا عن اللياقات والصنائع والفن إلخ "[5] اللافت أن مفهومه هذا يقترب من مفهوم بوا للثقافة، وتحديدا اقترانه بالممارسة المجتمعية؛ حيث المجتمع يساوي الثقافة، عند كليهما، أي من دون مجتمع لا وجود لإنتاج ثقافي، و بالنسبة لكيلهما كل السلوك وكل العادات التي يمارسها المجتمع عن وعي جمعي أو فردي يندرج ضمن ما يعرف بالثقافة. يتعمق **مالينوفسكي** أكثر من **بوا** ومن **قيسلر** ويقدم قراءة ميكروسكوبية لمفهوم الثقافة ؛ حيث إنها " هذا الكل الذي يضم الأدوات المنزلية والسلع الاستهلاكية والمواثيق العضوية التي تتدبر أمور مختلف المجتمعات البشرية والأفكار، والفنون، والمعتقدات،والأعراف"[6] ما نستشفه أن كل تفصيلة من تفاصيل الحياة اليومية تندرج ضمن ثقافة المجتمع، بدءا من تلك التفاصيل الحياتية التي قد تبدو أحيانا ساذجة، إلى أشملها وهي المتعلقة بالكليات والأفكار الكبيرة، و بالنسبة لمالينوفسكي، المجتمعات لا تحتاج في كثير من الأحيان لمنظرين ومثقفين يوجهون حياتها ويصنعون ثقافتها؛أي إن طرائق العيش هي من عمق الثقافة تنشأ آليا وتفرضها الحاجات اليومية للأفراد

والمجتمعات، وليس نظريات معرفية تنتجها العقول الكبيرة وتسقطها العامة على حياتها اليومية ؛بل على العكس إن الثقافة هي الكل الوحيد الذي ينشأ بالممارسة، وترقبه أعين الملاحظين لتحوله لنظريات اجتماعية وإنسانية. فهي إذن كما يرى "روث بنديكت: هذا الكل الذي يشتمل على كل العادات المكتسبة من قبل المرء بوصفه عضوا في مجتمع "[7]

نخلص أن كل المفاهيم تتشارك تقريبا في نقطة تقاطع واحدة هي المجتمع، بهذا فالثقافة في أشمل مفاهيمها في الدراسات الاجتماعية والدراسات الحديثة كل ما ينتجه مجتمع ما، شريطة أن تتوفر فيه كل صفات المجتمع على مر التاريخ.

2_ مفهوم الثقافة في الفكر العربي المعاصر. مالك بن نبي أنموذجا :

لابد أن نعي بداية أنه لا يمكن أن نعرج على كل من أدلى بدوله في موضوع الثقافة اصطلاحا ومفهوما، وهو ما يفضي بناء إلى انتقاء أهم المفاهيم التي تخدم المسار المنطقي للبحث، والتي تندرج ضمن الإطار المفاهيمي والمعرفي لما بعد الحداثة، ولعل من بين أهم من فصّل في موضوع الثقافة مفهوما وواقعا هو المثقف الجزائري مالك بن نبي؛ حيث يرى مالك بن نبي أن لكل أمة خصوصية معينة هي نفسها الثقافة، ولكن الاصطلاح لم يوضع إلا حديثا" فروما كان لها ثقافة (إمبراطورية) كما لأثينا (ثقافة حضارة) كما سنرى فيما بعد، ولكن لا العبقرية الرومانية ولا العبقرية الإغريقية ابتكرت لفظا أطلقته عنوانا على ثقافتها.

وكل ما كان في روما أو في أثينا إنما هو (حضور) ثقافة ما، لا تحديد وتشخيص لواقع اجتماعي أو تعريف لفكرة (ثقافة). و هكذا كان الأمر أيضا في دمشق وبغداد . فليس لنا أن نعجب إذا لم نجد كلمة (ثقافة) في وثائق العصر أو مؤلفات ابن خلدون؛ لأن فكرة (الثقافة) حديثة جاءتنا من أوروبا"[8] .لا تختلف وجهة نظر بن نبي عن وجهة نظر المفكرين الأوربيين في أن كل نتاج مجتمعي هو بالضرورة ثقافة؛ أي إن الحياة العامة للمجتمعات البدائية والحاضرة كلها تندرج ضمن ما لم يُعرف إلا حديثا باسم الثقافة. ولكن بالنسبة لابن نبي وجب حصرها دائما في إطار معرفي محدد، ومن تكتسب خصوصيتها فهي قرينة التاريخ، " لا يمكن لنا أن نتصور تاريخا بلا ثقافة، فالشعب الذي فقد ثقافته قد فقد حتما تاريخه[...] هي الكتلة نفسها، بما تتضمنه من عادات متجانسة وعبقريات متقاربة، وتقاليد متكاملة وأذواق متناسبة، وعواطف متشابهة، وبعبارة جامعة: هي كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة، ويحدد قطبيها: من عقلية ابن خلدون وروحانية الغزالي، وعقلية ديكارت، وروحانية جان دارك، هذا هو معنى الثقافة في التاريخ "[9] ،لم يكتف بن نبي في الرؤية المقترنة بالخلفية التاريخية للثقافة حتى لا يتهم بأحادية النظرة ولكنها يرى فيها منهاجا تربويا خاص لا يمكن الاستغناء عنه وإلا لا يمكن للمجتمع أن ينشأ .لذلك هو تربوي يرسخ فكرة أن "الثقافة ليست علما خاصا لطبقة من الشعب دون أخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي"[10] بتعبير آخر إن الثقافة هي الدستور العرفي الذي تواضع عليه أفراد المجتمع، ولأنه يختلف عن بقية الدساتير في كونه يملك قابلية الاستيعاب من جميع أطراف المجتمع مهما كانت الطبقة الاجتماعية التي ينتمون لها أو المستوى الاقتصادي الذي هم عليه، الثقافة هي دستور شمولي في تفاصيله، كما أنه يحظى بموافقة جميع أفراد المجتمع دون استثناء، وعن طيب نفس إلا لسميت باسم آخر غير الثقافة

ثانيا:الخصوصية الثقافية:

إذا اعتبرنا أن مفهوم إدوراد تايلو للثقافة أكثر المفاهيم اعتمادا، فإن تفاصيل الخصوصية الثقافية ينبني من جزئيات هذا المفهوم الذي نذكر أنه يعدُّها الكل المركب الذي يشمل المعرفة والفن والمعتقدات والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع، هذا في مجمل عام ، أما إذا أردنا التخصيص أكثر، ومعرفة الخصوصية الثقافية لأي أمة فعلينا أن نبحث عن مميزات كل عنصر من عناصر الثقافة التي حدّدها تايلور في مفهومه للثقافة، بمعنى إن الخصوصية الثقافة تتجرد من المفهوم الشمولي للثقافة لترتدي لباس الذاتية والقومية؛ أي إن الخصوصية الثقافية لأي مجموعة اجتماعية هي ما يميزها عن غيرها على مستوى المعرفة والفن والمعتقدات والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات. وتتقاطع الخصوصية هاهنا مع مفهوم الهوية. أو على الأقل تستحوذ على جزء كبير من المكونات الأساسية للهوية. بالإضافة طبعا للسمات الإثنولوجية والجغرافية و لعناصر الأخرى كثيرة.

وجب الأخذ دائما في الاعتبار أن المفهوم الهلامي للثقافة وسمة النسبية التي تطغى في محاولتنا لاستكناه مفهومها والتفصيل في ما هيتها، سنعكس حتما على مفهوم الخصوصية الثقافية لأنها تعبر جزء من الكل، ولهذا" تتعدد المفاهيم والتعريفات التي يمكن من خلالها الوقوف على معنى مصطلح (الخصوصية الثقافية) وذلك حسب المنهج الذي يتبناه كل مفكر أو باحث في تعاطيه مع ذلك المصطلح المهم وما يتصل به من مفاهيم وقضايا أخرى لا تقل عنه أهمية" [11] وعموما لا تختلف الخصوصية الثقافية عن الثقافة في بنيتها؛ أي إن الخلفية المعرفية لكل باحث هي التي تحدد عناصر الخصوصية الثقافية لأمة ما، فقد يرى عالم النفس مثلا أن الخصوصية الثقافية تتمثل في تركيبة الفرد النفسية والوعي الجمعي، وتأثيرهما على السلوك العام، ويرى عالم الاجتماع أن الخصوصية الثقافية تتمثل في الظواهر الاجتماعية اليومية وغيرها، وقد يرى المؤرخ أن الخصوصية الثقافية يكتسبها المجتمع من الماضي الذي عاشه الجيد والسيئ ، كما أن الأيدلوجيات والتيارات السياسية لها مفهومها الخاص حول الخصوصية الثقافية وهكذا... لهذا تكتسب الخصوصية الثقافية مفهومها من نظرة المُعَرِف الخاصة وخلفيته الابستمولوجية" وبهذا المعنى فإن (الخصوصية) ليست مفهوما محليا بل إن المفهوم نفسه عالمي. فكل جماعة مثقفة لها رؤيتها الذاتية لخصوصيتها.فاليمين المحافظ في الولايات المتحدة على سبيل المثال يؤكد على التفرد الأمريكي unigueness بسبب القيم الأمريكية American values ويعتبرها سببا للقوة وللدور الذي ينبغي أن تضطلع به الولايات المتحدة في قيادة العالم الحر "[12] ما نفهمه أنه إذا كان مفهوم الثقافة ولد من رحم الإثينولوجيا، فإن مفهوم الخصوصية الثقافية ولد من رحم الأيديولوحيا،" ويمكن القول إن تعريف الخصوصية الثقافية قد ظل قرين الاستخدام السياسي والأيديولوجي من قبل النخب التي تتبنى المفهوم، وكلاهما يحدد السلوك الذي هو في النهاية موضوع المؤشرات. وفي ظل تباين الخصوصيات التي تتبناها النهب المختلفة يكون البديل الوحيد لإيجاد مؤشرات موضوعي للمفهوم أن تكون هذه المؤشرات شديدة العمومية بحيث يمن أن تتسع لاستيعاب الخصوصيات الثقافية المحتملة. فلا يستقيم وضع مؤشرات لمفهوم الخصوصية إلا إذا وضعناه مع قرينه وهو (الثقافة)"[13] وبذلك فإنّ ضبط مفهوم واحد للخصوصية الثقافية قد يعد من الصعوبة بمكان فالثقافة هي بالأساس ثقافات، ومفاهيمها وإن تقاطعت في كثير من الجوانب، فهي تختلف في

كثير من الأحيان في قضايا جوهرية، مثل الدين والسياسة، فما بالك إن حاولنا التعمق أكثر داخل المفهوم نفسه، وكلمة خصوصية في حد ذاتها توحي بالاختلاف.

نرى أن الخصوصية الثقافية حتى لو حملت ضمنيا بالاختلاف والمغايرة فإنها تبقى أسهل ضبطا من مفهوم الثقافة؛ لأن مصطلح الخصوصية يدل من جهة معينة على مجموعة من العناصر المحددة التي تكون هذه الخصوصية، عكس الثقافة فهي مصطلح عام ، أما إذا قلنا الخصوصية الثقافية، فهذا يعني أن هناك عناصر معينة تحولها من مصطلح عام كالثقافة، إلى مصطلح محدد كالخصوصية الثقافية، وبهذا " يمكن وضع العديد من المؤشرات التي يتكون منها مفهوم (الخصوصية الثقافية) غير أننا في هذا المقام نركز على خمسة من تلك العناصر فقط بوصفها عناصر أولية يتكون منها مفهوم الخصوصية الثقافية . وبمكن صياغة تلك العناصر في شكل تساؤلات على النحو التالي :

1- من نحن؟ سؤال الهوية؛

2- ماذا نملك؟ سؤال التراث؛

3-ماذا نفقد نحن ويملكه غيرنا؟ سؤال الواقع؛

4- ما الذي نضحي به إذا استوردنا ما نحتاجه من غيرنا؟ سؤال الفرصة البديلة؛

5- ما تأثير هذا الاستيراد على سؤال الهوية؟ سؤال المستقبل.

وكما هو واضح فإن هذه الأسئلة من العمومية بحيث يمكن أن يستخدمها كل باحث أو يطوعها على النحو الذي يتناسب مع محوره أو قضيته الأساسية موضوع الدراسة."[14] ومنه تصبح الخصوصية الثقافية إذا أردنا إعطاء مفهوم شامل لها، هي ذلك الكل المتعلق بهوية الأفراد وتاريخهم الحضاري،وواقعهم الراهن، وقدرتهم على خلق الحلول، ومشاريعهم المستقبلية.

بناء على ذلك و بعملية حسابية بسيطة يمكننا أن تحدد بطاقة تعريف أي مجتمع من المجتمعات، ولو أنه من هذا المنظور سيرتبط مفهوم الخصوصية الثقافية، بالمجتمعات المدنية الحديثة والمعاصرة والتي تحكمها حكومات منتخبة أو غير ذلك؛ أي إن هذا المفهوم يندرج تقريبا ضمن النظام العالمي الجديد، والذي يقسم المجتمعات العالمية، إلى دول وحكومات و رقعة جغرافية محددة المعالم ولها اعترافها من قبل بقية الدول، في حين أن الثقافة في كثير من الأحيان لا تعترف بمثل هذه الأنظمة والحدود السياسية، ويمكنها التسرب والنفاذ إذا وجدت الأرضية الحاضنة لها. أما القضية الثانية هي أن الخصوصية الثقافية لا تفرضها مشاريع الحكم أو البرامج السياسية، بل تظهر بفعل الحياة العامة للأفراد والمجتمعات التي تخلق خصوصيتها الثقافية عبر حاجتها فهي لتسيير حياتها، بغض النظر عن موافقة السلطة أم لا، وهو ما سيتبدى لنا ونحن نحاول الكشف عن الخصوصية الثقافية، لمجموعة اجتماعية إفريقية خاصة جدا يطلق عليها اسم الجنقو من خلال رواية عبد العزيز بركة ساكن والتي عنونها باسم هذه الجماعة.

ثالثا:الخصوصية الثقافية في رواية الجنقو مسامير الأرض لعبد العزيز بركة ساكن:

1_ ملخص الرواية :

بطل الرواية هو رجل طرد هو وصديقه للصالح العام من مؤسسة تابعة لوزارة الصحة السودانية، ومنذ ذلك الوقت يعيش هو وصديقه في حل وترحال بالسفر إلى مختلف المناطق داخل السودان وخارجها، غايتهم الوحيدة اكتشاف تجارب جديدة، ومجتمعات جديدة لم لا عهد لهم بها و معرفة طريقة عيشها،معتمدين في ذلك على ما نابهما من تعويض مادي بعد الطرد بالإضافة للقدرة المادية لصديق بطل الرواية وراويها.

يصل بطل الرواية إلى مكان يسمى الحِلة ؛وهي منطقة نائية جنوب السودان ، يعيش بها مجتمع يمكن وصفه بأنه بدائي ؛ حيث يعيش رجاله الذين لهم خصوصياتهم المظهرية والفكرية كطبقة عاملة في الفلاحة وما جاورها من مهن كصناعة الفحم وغيرها، وتعيش نساؤها من صناعة الخمور المحلية وبعض الأكلات التقليدية كالمريسة والعسلية التي تبيعنها لهذه الطبقة الفلاحة التي تسمى الجنقو، في أيام الرخاء والحصاد التي يجنون فيها المال، وحتى في أيام العسر بعد أن يرهنوا ممتلكاتهم التي اشتروها أيام الرخاء .

يسعى كل فرد في هذا المجتمع العجيب المليء بالأساطير والأحاجي والخرافات والمعتقدات إلى الخروج من وحل الفقر والشقاء، والعمل في أعمال قد تعد محظورة في كثير من المجتمعات كالبغاء والسرقة والنهب وبيع الخمور. كما يعمل مجتمع الجنقو للحاق بركب الحضارة الإنسانية وتطوير أعمالهم،فالحصاد عندهم لا يزال بطريقته الأولى أي عبر المنجل، والصناعة عندهم لا تزال يدوية، والكهرباء معدومة فهم لا يزالون يستعملون القناديل والشموع.

يعتقد الجنقو أن نافذة الفرج قد فتحت حين تسعى الحكومة لبناء بنك لمساعدة الناس عبر القروض، بالإضافة لشركة اتصالات، لكن آمالهم تخيب حين يكتشفون أن البنك جاء لمساعدة الأثرياء فقط، فهم الوحيدون الذين يملكون ضمانات، أما الفلاح البسيط فعليه أن يبقى فلاحا بسيطا، ومن هنا يتشكل الفكر الثوري عند الجنقو، ويسعون للانتقام من البنك، إلا أن هذا التمرد ينتهي في الأخير باحتراق الحِلة وكل المحاصيل وهروب ما بقي من الجنقو لإثيوبيا كلاجئين بعد مطاردة الجيش لهم.

2_الخصوصية الثقافية في رواية الجنقو مسامير الأرض:

أ_ الخصوصية الشكلية والمظهرية:

تتشكل الخصوصية الثقافية للجنقو بداية من مظهرهم الخارجي الذي يوحي بأنهم لا يشبهون بقية المجموعات الاجتماعية الإفريقية، فهو مظهر أولا لا يشبه المظهر الإفريقي العام بقماشه وألوانه، ولا يشبه طبيعة عملهم كفلاحين ؛ في الحقيقة مظهرهم فريد من نوعه، ويعبر عن تشظي داخلي وذاتي وتيهان شكله سؤال وجودي مفاده من نحن؟ وإلى أي عصر ننتمي؟ نحن فعليا ننتمى لزمن مابعد الكولونيالية، ولكن واقعيا ننتمي لإحدى المجتمعات الأولى التي مصادر عيشها شحيحة جدا ومحدودة.

لهذا يسعى الجنقو لمواكبة العصر ولو مظهريا ولو شكليا، ولو في شكل قشور تنسيهم ما يعانونه من ضيق العيش، هو نوع من التوازن النفسي الذي يحاول الجنقو إيجاده لكل لا ينتهي بهم المطاف للاندثار والزوال، فطريقة اللباس والعيش هي سعي منهم لإثبات وجودهم كفاعلين ومنتجين ومصدرا من مصادر الإنتاج والثروة. فهو أشبه ببطاقة الهوية الأولى التي تُعرِّف بهم، وتوحدهم فهم يتشابهون جدا، ومن النادر أن يَشّذَّ أحدهم عنها فهي أقرب لل UNIFORMS[15] الذي يحدد الشكل العام للفرد والجماعة من هذا المجتمع،فالفرد صور للجماعة

حتى ولو شوهد منفردا فـ "الْجَنْقُو يتشابهون في كل شيء، يقفزون في مشيهم كغربان هَرِمة ترقص حول فريستها،يلبسون قمصانًا جديدةً، ياقاتها تحْفَلُ بالأوساخ التي عَمِل العَرَق وعملت الشمس، وريح السَّمُوم، والتُّربة الطينية السوداء على جعلها شاهدًا على صراع مرير مع المكان، والطقس،ولقمة العيش، يفضلون الجينز ذا الجيوب الكبيرة والعلامات التجارية البارزة، المكتوبة بخطوط كبيرة مثل :كونز، وانت، ديوب، لي مان، وِنستون وغيرها، لا يعرفون ماذا تعني،لكنها تعجبهم ويفضلونها على غيرها، ويدفعون لأجل الحصول عليها مالًا سخيًّا، يحيطون خصورهم بأحزمة الجلد الصناعي، فتبدو هيئاتهم كمخلوقات غريبة لا تنتمي للمكان، لكنها تقلد كل شيء فيه بالأخص كُلِّيقَة السمسم المحزومة جيِّدًا، أحذيتهم التي كانت جديدة لامعة وأنيقة في أواخر ديسمبر الماضي، هي الآن ذكرى تلك، مَزْق متسخة ذات أخرام وألوان يصعب تحديدها في الغالب، لا يهتم أحد بتهذيب شعر رأسه[...]يتركون شعر رأسهم الذي يميل للحُمْرَةِ من فعل الشمس كثًّا متشابكًا قصيرًا أو طويلًا في مستعمرات للشرا.[16] ولهذا يمكن التعرف عليهم ولو من بعبد، حتى لو كانوا خارج الحقول والأراضي التي يشتغلون فيها عادة، وبمجرد لفظك لكلمة الجنقو تتبادر إلى ذهنك الصورة التي رسمها الراوي عنهم، وهي تشبه تماما الفكرة التي تتبادر إلى ذهنك لو قلنا الهنود الحمر أو الفايكينغ أو الإسكيمو .... أو كل مجموعة اجتماعية يبدأ تشكل خصوصيتها الثقافية من الشكل العام للفرد وطريقة لباسه.

ب_ خصوصية الأسماء:

ليس لدى الجنقو تسمية واحدة تدل عليهم عكس المجتمعات الأخرى، بل إنه من النادر أن تجد أكثر من اسم لقومية واحدة، عكس الجنقو، وربما يرجع هذه للخصوصية الثقافية الأولى لتشكل هذه الجماعة، فعكس الجماعات الأخرى والتي هي أقرب إلى البدائية كـ(الجنقو) نجدها منغلقة على ذاتها تقريبا، في حين يتميز مجتمع الجنقو بالانفتاح على الآخر غير أن هذه العلاقة مع الآخر علاقة آلية فرضتها الظروف الحياتية والاقتصادية، فهو قد أدرك منذ البداية أنه لا وجود له بمعزل عن الآخر، وهذا الآخر لا يشترط فيه أن يكون ابن البلد (السودان) بل حتى الدول الحدودية والقريبة كإثيبوبيا وإريتيريا... ولهذا فإن الجنقو ليست مجموعة إثنية تنتمي لنفس شجرة العائلة كالقبائل الإفريقية الأخرى، بل إن الأساس في تكونها هو نمط العيش الاجتماعي وخاصة الاقتصادي الذي يتمثل في الزراعة وخدمة الأرض بالأساس، لهذا يمكن القول إن الرابط بين الجنقو ليس قوميا، بقدر ما هو اقتصادي – اجتماعي بالأساس، ولهذا تعددت الأسماء التي تحيل عليهم تعدد النشاطات التي يمارسونها في مختلف فصول السنة "للجنقاوي أو الجنقوجوراي عدة أسماء على مرِّ السنة، وشهورها، وفصولها :فهوَ اتَاكَوْ في الفترة ما بين ديسمبر إلى مارس؛ حيث يعمل في مزارع السُّكَّر بكنانة، ومصنع سُكر خشم القربة، عسلاية أو الجنيد ،.ويُسَمى فَحامِي في الفترة ما بين إبريل إلى مايو، حيث يعمل أم بحتي؛ أي منظفًا للمشروعات الجديدة، أو المهملة من الأشجار، ويصنع من سُوقها وفروعها الفحم النباتي.ويُسَمى جنقو أو جنقوجورا في الفترة ما بين يونيو وديسمبر؛ أي منذ هُطول الأمطار إلى نهاية موسم حصاد السمسم، أما خلال السنة كلها فتطلق عليه النساء اسم فَدَّادِي وبالمقابل يُسمِّي هو النساء اللائي يصنعن المريسة، والعرقي، فدَاديَّات، وعرفنا أيضًا من بعض الجنقو الذين أتوا من الفاشر ونيالا أن اسم الجنقوجورا هو المستخدم عندهم للدلالة على ما نسميه نحن في الشرق اختصارًا جنقو، لا يطلقون لفظ جنقاوي للمفردكما نفعل، بل

جنقوجوراي.[17] فالجنقو هو جنقو داخل الجماعة، وهي ميزة أخرى من ميزات الخصوصية الثقافية لهذا المجتمع الذي يضمحل فيه الفرد داخل الجماعة؛ إذ إن وجوده مرهون بوجود الجماعة، فالأعمال التي تكسبه خصوصية الأسماء التي تطلق عليه هي أعمال جماعية بالأساس وموجهة للاستهلاك الجماعي وليس الخاص، ولهذا فالجنقو بعد مظهره الخارجي لا يمكن أن يسمى جنقو إلا داخل الجماعة ومع ثلة ترتدي اللباس نفسه وتسلك السلوك نفسه أو العمل نفسه (الزراعة بالأساس)، ولا تتجول تقريبا إلا جماعات "قالت لي أَدِّي :الليلة الجنقو نزلوا، ما شايفهم شايلين القُوقُو كيف؟ وتعني بالقُوقُو حقيبة صغيرة يحملها الجنقو على أكتافهم، يحتفظون فيها بأغراضهم ويعتقدون فيها كذلك"[18] ، ولهذا فالصفات الجسمانية والفيزيولوجية التي تكتسبها بقية القوميات والمجموعات الاجتماعية من العامل الجيني والإثني، يكتسبها الجنقو من طبيعة العيش، وهو ما يكسبهم خصوصيتهم الثقافية المميزة. فالروتين السنوي وتعاقب الفصول والعمل تقريبا في الأعمال نفسها، وتعرضهم العوامل المناخية والاقتصادية نفسها أيضا، جعلهم يتشابهون في كل شيء حتى سحنة الوجه، ومن جاء تعدد الأسماء التي تطلق عليهم.

ج_ الخصوصية الاجتماعية:

لا يكتسب الجنقو خصوصيتهم الثقافية فقط من المظهر الخارجي، أو من طبيعة العمل الذي يكسبون به رزقهم، بل من نمط معيشتهم وما يحبون وما يكرهون، وإيقاع الحياة التي يعيشونها، فسبل البقاء واحدة، والطريق للمتعة والشهوة واحد، والمشاكل التي يعيشونها واحدة ؛ حيث يطغى عليها دائما المشكل الاقتصادي ، ولكن على الرغم من هذا فهم لا يبخلون على أنفسهم من متاع الحياة وشهواتها، مما يخفف عنهم ضنك العيش، أو يساهم على الأقل في استمرار الحياة.

إنها حياتهم التي يعرفون تفصيلها وحتى مآلها، وهو ما يعطيهم خصوصية أخرى فالجنقو دورة حياتهم معروفة ومسطرة منذ أن قرروا أن يكونوا جنقو، أو بالأحرى منذ فرضت عليهم الحياة أن يكونوا جنقو، هم يدركون مسبقا أن الجنقو لا يمكنه الخروج من الدائرة المفرغة التي دخلها بإرادته أو بإرادة الحياة، وأن نهايته معروفة مسبقا، وأن القليل من استطاع أن يكسر القاعدة ويغير ملامح نهايته، إن " جنقوجوراي، يأتي إلى هنا للعمل موسمًا واحدًا فقط ويقول لنفسه :إنه بعد هذا الموسم سوف يعود لأهله، يبسط أمه، وأخواته، ويتزوج، فيعمل موسمه الأول، ولكن أولاد الحرام وبنات الحرام دائمًا له بالمرصاد، فيشرب قروشه كلها مريسة، وعرقي، وينوم مع النسوان، ويصاحب، ويقول السنة الجاية بعد حصاد السمسم مباشرة سوف أعود إلى أهلي وهكذا، إلى أن يبلغ من العمر عتيًا، فيمرض ويموت، قال ضاحكًا :أنا في حياتي ما شفت جنقوجوراي واحد رجع لأهله !إلَّا إذا جاء أهله، وساقوه من هِنا "[19] لهذا يدرك الجنقو أنهم يعيشون حياة عبثية وإن كانت محدودة المعالم، و لا يمكنه الخروج من جدران المكان أو هذا الفضاء المنغلق على نفسه(الحِلة)، وإن بدا ظاهريا مفتوحا إلى أن أركانه لا تتعدى أصابع اليد الواحدة فإضافة إلى العمل في الحقول مواسم الحصاد، "الجنقو لا يقنعهم الآن سوى مجلس الشراب، على النساء أن يلحقن بهم في الحلة لكي يبعن لهم العرقي، أو يهيئن لهم المفارش، فهذه الأيام هي أيام الحصاد والمحصول هو الجنقوجوراي، دَينه مضمون، ونقده أكثر ضمانًا، بس كيف يدخل البيت، فالنساء يتخاطفنهم من الشوارع"[20] هذا ما يؤكد قولنا إن دورة حياته معلومة ومحدودة، وقيمة العمل عندهم هي

الحصول على متعة الحياة وليست تطوير الذات والخروج من بوتقة البروليتارية الرثة التي ينتمون إليها ، كما يعرف جيدا خصوصيات المكان وإمكاناته، ويعلم أن الخروج من مرتبة العامل(العبد) لمرتبة المالك (السيد) يتطلب معجزة أو تغييرا راديكاليا، تقوم به ثورة وليس مجهودا فرديا، لذلك فهو يبقى يحافظ على نمط حياته الخاص الذي يحدد ثالث أركان خصوصيته الثقافية التي تحدد هويته بالإضافة للشكل الخارجي والأسماء التي تدل عليه، لأن نمط الحياة هذا لا يتخلى عنه الجنقو مهما كان الأمر حتى في أتعس الظروف الاقتصادية التي يمر بها خارج موسم العمل؛ بل تتحول بفعل التكرار إلى أيديولوجيا أو معتقد؛ إذ إن " يوم الخميس هنا يوم عيد، يقضيه الجنقوجوراي تحت شعار محفوظ ومعروف وهو:خميسك ولو تبيع قميصك .يهبطون إليه من المشاريع والتايات البعيدة والقريبة، عابرين مزارع الذرة والسمسم، أو غابات الكتر والطلح الصغيرة المتفرقة بين هنا وهناك، مثيرين الرعب في الأرانب البرية والفئران والسحليات، عن طريق دق أرجلهم الخشنة على الأرض الطينية السوداء، عن طريق أصواتهم التي تطلق أغنيات حصاد بائدة قديمة نشاز، في سماوات الفلوات الشاسعة، على ظهورهم القوقو متخمًا بعروق الشجر، ووصفات لعلاج مرض الصعيد(نوع من الحمى)، ولدغات الثعابين والعقارب، وحتى خادم العقرب الصغيرة السوداء المؤذية، وما استطاعوا جمعه من زينة إلى تلك اللحظة وعندما يصفو لهم الجو، أو يبلغ بهم التعب أشده، يجلسون تحت شجرة لالوب أو طلحة رءوم ويحكون عن أرباب العمل والنساء وحي قرش، وهم غالبًا ما يتجنبون الحديث عن المال هذا المخلوق الغريب اللَّزج، الذي لا يستقر في جيب، ولا كف، ولا قوقو، الذي يأتي بالمريسة والعرقي، يأتي بالشيَّة والمرس والكجيك وما لا يحلمون به من طعام، يأتي بالنساء في لمح البصر يعرف كيف يهين الرجال ويمرّغ أنوفهم في التراب، وينهي رحلة حياتهم بشجرة الموت في فريق قرش بالحُمرة"[21] وهي آخر مرحلة يمر بها الجنقو في حياتهم قبل الموت، تتبدى أقرب للمآل الآخر، أو قاعة الانتظار قبل الانتقال للعالم الآخر يذهب لها الجنقو حين يدركون أنهم عاجزين عن مواصلة إيقاع الحياة الذي عرف عنهم ، ويصبحوا عاجزين عن تحصيل لقمة العيش أو رهن أي ممتلكات مقابل لذات الحياة فينتقلون لشجرة الموت، حينما يدركون أن أيا من معارفهم سوف يتحمل مسؤوليته بعد أن أصبح عاجزا عن العمل و "شجرة الموت دي شجرة كبيرة في الحُمرة في فريق قرش، لمَّان يكبر الجنقوجوراي خلاص، ويقرِّب من الموت، أو يمرض مرض تاني ما في عافية بعده، يمشي وحده، أو ترميه الفدادية، « صانعة المريسة»صاحبة البيت في الشجرة دي حتى يموت، الإخوان ما بيقصروا منه يدوهُ الفيها النصيب كان طعام، كان قُرُوش كان هُدُوم، كان شراب، كان تُمباك"[22] ، إنها دار العجزة التي يستثنى منها عادة القلة ممن استطاعوا كسر الدائرة المغلقة التي رسمها الجنقو لأنفسهم، أو رسمتها الطبيعة الجغرافية لهم وتماهى أغلبهم معها، حين حصروا حياتهم بين العمل في موسم واحد واللهو في أغلب مواسم السنة. ولكن هناك من تكون طموحاته أكبر بقليل من ذلك ولا يرضى أن يكمل بقية حياته هكذا حتى ينتهي به المطاف تحت شجرة الموت، فيحاول كسب بعض المعارف والمهارات ليتجاوز أقرانه وعادة" ما يكون قد حظي بوظيفة وكيل مشروع، وهي غاية ما يحلم به الجنقوجوراي، وتلك هي فائدة العلم ودخول المدارس"[23] أما الغالبية العظمى فيعرفون أين سينتهي به المطاف، ولكنه لا يحرك ساكنا لتغيير هذا المآل الأخير اللاإنساني؛ لأنه تحول لمعتقد وإيمان عند أغلبهم، فمهما اجتهد فنهايته معروفة شجرة الموت .

هـ العجائبية ووظيفتها داخل مجتمع الجنقو:

ينتمي الجنقو زمنيا إلى المجتمعات الحديثة والمعاصرة، والزمن محدد داخل الرواية بإشارات تاريخية وظفها الكاتب، أي إن زمن الحكي هو فترة ما بعد الاستقلال، وهي فترة عرفت فيها التقنية والعقلانية قفزة معتبرة، في تكوين أساس المجتمعات في العالم الثالث وغيره والجنقو في جزء من وعيهم يدركون ذلك جيدا، هو الجزء الظاهر للآخر والمتمثل في محاولة محاكاة الظواهر، أما نمط التفكير فهو مزيج من التدين الفطري المسيحي أو الإسلامي والذي تم استهلاكه بصفة مبالغة فيها حتى أصبح أقرب للتصوف واللامعقول، أو الخرافة والأسطورة التي لا يخلو مجتمع إفريقي منها وإن وصلته الأديان السماوية أو آخر ما وصلت إليه مستويات التفكير عبر العالم.

فنجد حضور الفكر الإسلامي ولكن ليس ممثلا بالقرآن والسنة كما هو مفترض؛ بل ممثلا في أشخاص معينين يمارسون الوصاية على الدين الإسلامي بطريقة لا منطقية، وساعدهم في ذلك جهل كثير من سكان الحِلة بتفاصيل الدين، حيث اغتنموا الفرصة لممارسة نوع من السلطة المجتمعية العقائدية مثل **الفكي علي** أحد شخوص الرواية، "لديه فهم للدين، ليس متقدمًا أو متخلفًا، ولكنه غريب وخاصة في مسألة شُرب الخمر والتكليف؛ حيث يرى أن الناس عند الله ليسوا مسلمين وغير مسلمين، ولكنهم نساء ورجال وأطفال، فالأطفال والنساء غير مكلفين بالعبادة؛ لأن لا مكان لهم في موضوع الثواب بالجنة، فالجنة للرجال وحدهم؛ لذا عليهم دفع تكلفة ما سيجدونه في الجنة هنا في الدنيا، أما في الخمر فإنها محرمة على السُّفهاء والصعاليك فقط؛ لأنهم يتخذونها لهوًا، أما الخيرة والصفوة والمتأدبون من الناس بمن فيهم الحكام، والفقهاء، والقضاء، والفُكَية، فإنها خير جليس لهم، وقال :أفكاري دي كلها كلمني بيها إبليس ذاته، إبليس دا كان واحد من الملائكة، وأكثرهم علمًا وقربًا من لله، الناس ما تستهين بيهُ"[24] يتمظهر من خلال تفاصيل الرواية أنه يرتدي ثياب الدين ليقنع الناس بما لا يمكن تصديقه، ويجعلهم في لا وعيهم يصدقون أنه صاحب قوى خارقة أو قدرة لا يملكها بقية أفراد المجتمع ليتمتع بنوع من السلطة الاجتماعية التي تمكنه من الوصول لأغراضه مستغلا الجهل الذي يعم أفراد العينة المجتمعية،وبهذا يؤسس خطابه دينيا عبر نصوص معترف بها، ولكنه ينحاز به إلى اللامنطق إرضاء للمعتقدات الناتجة عن الخصوصية الثقافية للمجتمعات الإفريقية التي تؤمن في لا وعيها بالميتافيزيقي والعجائبي والروحاني الأسطوري أكثر من المنطق والعقل، منه يكتسب سلطته التي منحته إياه الخصوصية الثقافية لمجتمع الجنقو.

من بين التمثيلات العجائبية والتي ليست غريبة عن مجتمع ينتمي، بعض الأساطير والخرافات المتعلقة بالحياة والموت كالخرافة المتعلقة بشجرة الموت. "يحكي عنها الناس حكايات مرعبة ويُقال إنها تخبر الشخص الذي يلجأ إليها بيوم موته، تهمس له به في أذنه عند الصباح الباكر صوتها أشبه بصوت امرأة عجوز، ويقال إنها تحتفظ بروح الميت معلقة في أحد فروعها إلى يوم القيامة، كما من الشائع هنا الحديث عن بكائها ودموعها، كلما مات أحدهم في ظلها، أو على حسب التعبير المحلي هنا «عندما يسلمها الأمانة»"[25] وليس هذا فحسب فالعديد من الأساطير المتعلقة بها، مثل أنه لا يمكن مغادرتها إذا ما قررت إنهاء حياتك تحتها فالعدول ممنوع، كما أن البكاء تحتها يعني أنك ستموت تحتها، ولهذا هي الشجرة الأكثر غرابة والأكثر عجائبية في مجتمع الجنقو، وهي المفارقة التي لا تجدها إلا في خصوصية ثقافية إفريقية، فالشجرة التي غالبا ما كانت رمزا للحياة والنماء والخير تعود في

المعتقد الإفريقي للرمزية الأولى، وهي رمزية الخطيئة والإثم(شجرة آدم)، لتتحول عقوبة لمن قضى حياته غرقا في الشهوات والملذات، وأهمل القيمة الحقيقة للوجود،وأضاع ذاته بحثا حن متعة زائلة.

الخاتمة:

وفي ختام هذا الدراسة التي جاءت بعنوان " **الخصوصية الثقافية في رواية الجنقو مسامير الأرض لعبد العزيز بركة ساكن** نصل إلى جملة من النتائج نستعرض أهمها وهي كالتالي:

-عرفت الرواية العربية الإفريقية نضجا فنيا معتبرا في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين.

-ارتبط مفهوم الثقافة بما بعد الكولونيالية وبالفترة الأكاديمية بمجال العلوم الاجتماعية والإنسانية أكثر من ارتباطه ببقية المجالات الأخرى.

- من بين أول المجالات التي حددت مفهوما علميا و أكاديميا للثقافة هي الإثنولوجيا إحدى فروع الأثروبولوجيا والتي بدورها فرع من فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية.

- المفاهيم التي صيغت حول ماهية الثقافة تتشارك تقريبا في نقطة تقاطع واحدة هي المجتمع إذ أن الثقافة في أشمل مفاهيمهما في الدراسات الاجتماعية والدراسات الحديثة كل ما ينتجه مجتمع ما، شريطة أن تتوفر فيه كل صفات المجتمع على مر التاريخ.

- تتمظهر الخصوصية الثقافية بوصفها ذلك الكل المتعلق بهوية الأفراد وتاريخهم الحضاري،وواقعهم الراهن، وقدرتهم على خلق الحلول، ومشاريعهم المستقبلية.

- تعدُّ الجنقو مسامير الأرض من بين الروايات المعاصرة التي تطرح أسئلة آنية، حول مستقبل المجموعات الاجتماعية الإفريقية التي لا تزال في تعيش في مناخ شبه بدائي.

- تتبدى الجنقو مسامير الأرض تروي بطريقة مميزة ثورة البروليتاريا في جنوب السودان على رؤوس الأموال والسلطة الحاكمة التي رسخت الطبقية، واعتبرتهم أفراد غير منتجين.

- يجسد لنا عبد العزيز بركة في روايته، صراع الهامش والمركز في الواقع السوداني الحديث والمعاصر.

- تعدُّ الخصوصية الثقافية في مجتمع الجنقو مميزة عن الخصوصيات الثقافية الإفريقية الأخرى، فهي تعيش حالة ضياع بين الماضي الإفريقي والإرث الإفريقي الذي لا يريدون التخلي عنه، وبين إرهاصات الحداثة التي بدأت تنتشر داخل هذا المجتمع الصغير.

هوامش وإحالات المقال

[1]- كوش دنيس ،مفهموم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، دط ، 2007 ، المنظمة العربية للترجمة، لبنان ، ،ص27

[2]-المرجع نفسه،ص 26-27

[3]- كوش، دنيس، مفهموم الثقافة في العلوم الاجتماعية ،مرجع سابق،ص 30-31

[4]-المرجع نفسه، ص37

[5]- جاك لومبار، مدخل إلى الاثنولوجيا، ط1997،1،المركز الثقافي العربي، المغرب، ص153

[6]- المرجع نفسه، ص 153

[7]-المرجع نفسه، ص 153

[8]- مالك بن نبي ،مشكلات الثقافة، ط4 ،2000،دار الفكر، سوريا، ص 24

[9]- مالك بن نبي ، شروط النهضة، دط،1986،دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، سوريا،ص 85-86

[10] - مالك بن نبي شروط النهضة، ،مرجع سابق، ص 86

[11] - بشير عبد الفتاح،الخصوصية الثقافية، ط1، 2007، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،مصر،ص7

[12] -المرجع نفسه، ص 7

[13] - المرجع نفسه، ص8

[14] - ، بشير عبد الفتاح،الخصوصية الثقافيةمرجع سابق،ص 10-11

[15] - لباس ذو تصميم أو موضة مميزة يرتديه أفراد مجموعة معينة ويستخدم كوسيلة لتحديد الهوية.

[16] - عبد العزيز بركة ساكن، الجنقو مسامير الأرض ، دط،2012، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، مصر، ص13

[17] - الرواية، ص14.13

[18] - الرواية، ص 34

[19] - الرواية، ص 55.54

[20] _ الرواية، ص 62

[21] _ الرواية، ص103

[22] _الرواية، ص 54

[23] _ الرواية، ص104.103

[24] _الرواية، ص118

[25] _ الرواية، ص 210

قائمة المصادر والمراجع:

1-بشير عبد الفتاح،الخصوصية الثقافية، ط1، 2007، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،مصر

2- جاك لومبار، مدخل إلى الاثنولوجيا، ط1،1997،المركز الثقافي العربي، المغرب.

3- كوش دنيس ،مفهموم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، دط ، 2007 ، المنظمة العربية للترجمة، لبنان.

4- مالك بن نبي ،مشكلات الثقافة، ط4 ،2000،دار الفكر، سوريا.

5- مالك بن نبي ، شروط النهضة، دط،1986،دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، سوريا

6- عبد العزيز بركة ساكن، الجنقو مسامير الأرض ، دط،2012، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، مصر.